مقتطفات من كتاب
نظام التفاهة
الآن دونو

حدوتة كتاب

إليك...لأنك تعرف لماذا!؟

كبسولة خير للبرمجيات
مصطفى علي سيد
(أبو مهاب)
https://cap-khir.com
sedratalmontha@gmail.com

مُقدّمـة

ضع كتبك المعقّدة جانباً، فكتب المُحاسبة صارت الآن أكثر فائدة. لا تكن فخوراً، ولا روحانياً، ولا حتى مرتاحاً، لأن هذا يمكن أن يُظهرك بمظهر المغرور. خفّف من شَغفِك، لأنه مُخيف. وقبل كل شيء، لا تُقدّم لنا «فكرة جيّدة» من فضلك، فآلة إتلاف الورق ملأى بها سلفاً. هذه النّظرة الثّاقبة في عينيك مُقلِقةٌ: وسّع حَدَقتَي عينيك، وأرْخِ شَفتَيك. ينبغي أن تكون للمرء أفكارٌ رخوةٌ، وينبغي أن يُظهر ذلك. عندما تَتَحدّث عن نفسك، قلّل من إحساسِكَ بذاتك إلى شيءٍ لا معنىً له: يجب أن نكون قادرين على تصنيفك. لقد تغيّر الزمان؛ فلم يعُد هناك اقتحامٌ للباستيل *Bastille*،[1] ولا شيء يُقارن بحريق الرايخستاغ *l'incendie de Reicshtag*،[2] كما أن البارِجة الروسيّة «أورورا» *l'Aurore* لم تُطلِق طلقةً واحدةً باتّجاه اليابان.[3] ومع ذلك، فقد تم شنّ الهجوم بنجاح: لقد تبوّأ التافِهون موقِع السّلطة.

(ألم يصف إمبرتو إيكو ما يحدث في عملية الترجمة بأنه تفاوضٌ بين لغتين، تتنازل إثره كل لغة عن شيءٍ ما من كيانها التعبيري؟).

مستحضرةً في ذلك قولاً قرأته ذات مرة للكاتب السوري عبد اللطيف الفرحان:

«الكتابة عندي فرض كفاية، إذا كتب غيري وأجاد عن الموضوع فلا أجد كتابتى إلا تكراراً. وبالتالى، فعزوفي عن الكتابة عنها ليس موقفاً، بل إيماناً بأنه ليس لدى ما أضيفه لقضية واضحة ومحسومة وصريحة. فالكتابة ليست إثبات موقف، بل إضفاء قيمة معرفية».

وهكذا، فهذا الكتاب ينقل بدقة ما أعتقده من الانتشار المستشري للتفاهة، مع الإيمان بأنها، وإن عرضت نفسها - لغير المتمعن - على شكل فوضىً متمثلةٍ في حالاتٍ متناثرة، إلا أنها في واقع الأمر نظامٌ مكين، يضرب بجذوره في تربة المجتمع شيئاً فشيئاً، بشيء من المنهجية والاستقرار المرعبين.

(16) الأميرة أريان ابنة مينوس ملك كريت هي شخصية من الميثولوجيا الإغريقية. أحبت أريان البطل تيزي الذي جاء إلى جزيرتها ليقتل المينوتور (وحش له جسد إنسان برأس ثور) المحاصر داخل متاهة. وحتى لا يضل تيزي طريقه، زودته أريان بعدة النجاة: سيفاً وكومة من الخيط. صار تعبير «خيط أريان» يستخدم بعدها ككناية عن الوسيلة اللازمة للاهتداء إلى الطريق القويم أو الاختيار الصحيح في الظروف الصعبة.

هـ. الشبكات الاجتماعية

الشبكات الاجتماعية ومواقع التواصل (مثل تويتر وفيسبوك وإنستاجرام)، هي مجرد مواقع للّقاء الافتراضي وتبادل الآراء؛ forums لا أكثر. فيها، يتكون «عقلٌ جمعي» من خلال المنشورات المتتابعة. هذا الفكر التراكمي السريع الذي يبلور – بسرعة وبدقة – موضوعاً محدداً، نجح في اختصار مسيرة طويلة كان تبادل الفكر فيها يتطلب أجيالاً من التفاعل (المناظرات والخطابات والمراسلات والكتب والنشر والتوزيع والقراءة والنقد ونقد النقد). ورغم كل هذه الفرص، فقد نجحت هذه المواقع في «ترميز التافهين» كما يقال، أي تحويلهم إلى رموز.

ما يجعل من كثير من تافهي مشاهير السوشال ميديا والفاشينستات يظهرون لنا بمظهر «النجاح»، هو أمر يُسأل عنه المجتمع نفسه، الذي دأب على التقليص التدريجي لصور النجاح التي تعرفها البشرية ككل (العمل الجاد والخير للأهل والمواطنة الصالحة وحسن الخلق والأكاديميا والآداب والفنون والرياضة إلخ)، فألغاها جميعاً من قائمة معايير النجاح، حتى اختزلها في المال فقط، فلم يُبقِ إلا عليه وحده معياراً. لقد حذرنا من ذلك كثيراً. من يُنكر الآن أن المشاهير والفاشينستات قد حققوا «النجاح» فعلاً، وفقاً لمعيار المال؛ وهو المعيار الوحيد الذي وضعه مجتمعنا نصب أعين شبابه؟

منذ صدور كتاب «مبدأ بيتر» *The Peter Principle* فإن الميل إلى إقصاء غير التافهين صار يتأكّد بانتظام، ولكن الأمر قد وصل بنا اليوم إلى مرحلةٍ تتعدّى ذلك؛ لقد صارت التفاهة مطلوبةً بالفعل. لقد بلغ من الأمر أن علماء النّفس – الذين أصبحوا يشعرون أنهم في مكانِهم الطّبيعي عندما يكونون في كليّات التجارة – صاروا يقلِبون علاقات القيمة value relationships رأساً على عقب، فيُعرّفون أشكالاً معيّنةً من الكفاءة باعتبارها فائضاً من «السّيطرة على النفس» excess of self-control.

ما يذكرني بثنائية «الخبز والألعاب» *panem et circenses*؛ هذه العبارة اللاتينية التي ذهبت مثلاً للتعبير عن نمط حياة الشعب الروماني في فترة الانحطاط قبيل انهيار روما، عندما كان الرومان مأخوذين تماماً بالمتع الحسية من لذائذ وترف وطعام («الخبز» *panem*) وبألعاب المجالدين الدموية في الملعب («الألعاب» *circenses*)، والتي دخلت القاموس السياسي الحديث فصارت تستخدم للدلالة على الأولويات التافهة للسياسيين المُضلِّلين للشعوب،

ولكن اعتبارات التفاهة لا تتعلق بنوعية الصحافة فقط، بل بنوعية القراء أيضاً. ففي مقالٍ شهير له حول هذا الموضوع، يحذر الشاعر الأسباني بيدرو ساليناس Pedro Salinas من صحافةٍ تؤدي إلى إنتاج من أسماهم بـ «الأميّون الجدد»، فيقول:

«ثمة أيضاً نوعٌ من الأميين الجدد جزئياً الذي يمكن رؤية أصحابه يحومون حول أكشاك بيع الصُّحف كنحلاتٍ طنانة تحوم حول زهرةٍ نضرة، بحثاً عن المقادير التي ستصنع بها عسل حياتها الفكرية. إنهم لا يقرأون الكتب ولكنهم مفتونون بتكاثر المجلات وبمواضيع أغلفتها. هؤلاء أهلٌ للشفقة لأنهم بعيداً عن إعفاء أنفسهم مشقة العناء كقرّاء، فهم في غاية السخاء والكرم حين يتعلق الأمر بها.

بذلك، وعبر العالم، يلحظ المرء صعوداً غريباً لقواعد تتسم بالرّداءة والانحطاط المعياريّين: فتدَهورت متطلبات الجودة العالية، وغُيِّب الأداء الرفيع، وهُمّشت منظومات القيم، وبرَزَت الأذواق المنحطّة، وأُبعِدَ الأكفّاء، وخلت الساحة من التحدّيات، فتسيّدت إثر ذلك شريحةٌ كاملةٌ من التافهين والجاهلين وذوي البساطة الفكرية، وكل ذلك لخدمة أغراض السوق بالنهاية، ودائماً تحت شعارات الديمقراطية والشعبوية والحرية الفردية والخيار الشخصي، حتى صار الأمر يذكّر بما كان مونتسكيو Montesquieu يحذّر منه من وجوب صون الحرية عن الابتذال، عندما قال إن «ممارسة الحرية من قبل أكثر الشعوب تمسكاً بها تحملني على الاعتقاد بوجود أحوالٍ ينبغي أن يوضع فيها غطاءٌ يستر الحرية مثلما تُستَر تماثيل الآلهة».[1]

ب. اللغة الخشبية

للتّفاهة أداةٌ لغويةٌ هامة هي «اللّغة الخشبية» *langue de bois* التي يتحدّث عنها المؤلف في بعض مواضع الكتاب، وهو يشير بذلك إلى اللغة الجوفاء المحمّلة بالحقائق والتأكيدات التوتولوجيّة Tautology، أي النطق بتحصيل الحاصل الذي يقوم على الحشو أو مجرد التكرار بألفاظٍ مختلفة، وكأن في الأمر قضيّةً جديدةً تدفع بمعرفتنا إلى الأمام، رغم أنه لا يضيف عما هو معروفٌ عن الشيء أساساً، بما يعني أنها محض ألفاظٍ زائدةٍ على أصل المعنى من دون فائدة

وهكذا، فإن أكثر الناس يقيناً هم عادة أكثرهم جهلاً، فهم على ثقة كاملة من صحة الأخبار المنشورة في الصحف، فيرونها عنواناً للحقيقة.[32] وفي الواقع، فإن نظام التفاهة لا يثبت فعاليته القصوى إلا مع مثل هؤلاء الناس.

د. التلفزيون

تضم التلفزيون اليوم وصمتان كبيرتان. تتعلق الأول بمذيعيه، والثانية بضيوفه:

فأما عن مذيعي التلفزيون، لنلاحظ أن الحياة العامة في السابق كانت لا تقبل إلا من يحدّدون – بدقةٍ هندسيّةٍ صارمة – ما هو القالب العام الذي يودون أن يطرحوا أنفسهم من خلاله (غناء، تمثيل، شعر، رياضة، سياسة).

(الجيش). بعدها، يصير مخولاً شرعاً لمخاطبة رعيّته وتوجيهها من موقع السلطة هذا. وما هي عدّة الصّنعة الملكيّة إذا لم تكن عرشاً وصولجاناً ودستوراً وجيشاً؟ لقد كثُرَت الاستوديوهات فكثُرَت الملوك. وهذه مشكلة: إن تعدّد الملوك، فولاؤنا لمن؟

هـ. الشبكات الاجتماعية

الشبكات الاجتماعية ومواقع التواصل (مثل تويتر وفيسبوك وإنستاجرام)، هي مجرد مواقع للّقاء الافتراضي وتبادل الآراء؛ forums لا أكثر. فيها، يتكون «عقلٌ جمعي» من خلال المنشورات المتتابعة. هذا الفكر التراكمي السريع الذي يبلور – بسرعة وبدقة – موضوعاً محدداً، نجح في اختصار مسيرة طويلة كان تبادل الفكر فيها يتطلب أجيالاً من التفاعل (المناظرات والخطابات والمراسلات والكتب والنشر والتوزيع والقراءة والنقد ونقد النقد). ورغم كل هذه الفرص، فقد نجحت هذه المواقع في «ترميز التافهين» كما يقال، أي تحويلهم إلى رموز.

إن أزمة العالم العربي هي أزمة مفاهيمية conceptual crisis بامتياز، وعن أزمة هذا الحديث المتعقل في ظل الأوضاع السياسية العربية، كتب الشاعر اللبناني الراحل أنسي الحاج:

«في هذه الظروف التاريخيّة يتّخذ حديثٌ كهذا طابعاً غريباً عجيباً: شذوذُ الوقاحة، عزفٌ منفردٌ أشبه بالمرض النفسي، كلّ يوم ينقضي يُشعرني بأنّي أزدادُ أقلّويّة؛ كنتُ واحداً وأمسيتُ ربع واحد».

يظهر أننا الآن – جميعاً – ندفع ثمن سنوات طويلة من الثقافة الطَّرَفيّة، التي قامت على السخافة والتسطيح (سواء انغلاقاً أو انفتاحاً، لا فرق).

1. البهرجة والابتذال

يسعى البعض لتخليد اسمه بأي شكل من الأشكال، أياً ما بلغ من فجاجة هذا الشكل أو سطحيته بل وقبحه أحياناً، والأمثلة كثيرة:

ففي سبيل الشهرة الأنانية، يصبح هؤلاء مثل هيروستراتوس Herostratus، فـ «يحرق كل معبد»، كما يقال. والإشارة هنا هي إلى الشخص الذي قام بحرق معبد «أرتيمس» Artemis في آسيا الصغرى (تركيا اليوم)، وهو عجيبة من عجائب الدنيا السبع، فقط رغبةً منه لتخليد اسمه في التاريخ، وإن كان ذلك من خلال عمل سلبي.

وبذلك فإن الدرس هنا هو أن عقلك هو قدس الأقداس، فلا تسمح لأي فكر أن يدخله ما لم تطهّره بنار الشك.

انتقدهم نيتشه من الشعراء المدّعين، غيرالأنقياء، الذي كان كل ما يفعلونه في قصائدهم هو أنهم كانوا «يُكدِّرون مياههم، كي تبدو عميقة». (40)

وفي كتاب «رحلة في حجرة نومي» *Voyage autour de ma chambre* لزافييه دي ميستر Xavier de Maistre (1763–1852) مثال ثالث. ففيه يقوم الكاتب – وهو نبيل شاب كان حبيس حجرته – برحلة تستغرق أسبوعين في حجرة نومه وكأنه يزورها لأول مرة. مدققاً بكل ما هو اعتيادي ودارج إلى حدّ التوغل في التفاصيل، يصل إلى استكشاف خباياها التافهة بعدسة منظوره الممتع. وهكذا، ومن خلال الحيز الصغير الداخلي، يحدد العلامات البصرية التي يمكن الاستدلال منها على السياق الأكبر الخارجي: المدينة/العالم.

«أنا، النَّكِرَة، المِسكين poor Little Nothing، ما الذي يمكنني عمله بهذا الصّدد؟». توقّف عن السّخط وانتقِل إلى السؤال التالي: اعملْ بلا هوادةٍ لخلق توليفٍ synthesis من القضايا الوَجيهة؛ التقِ مع آخرين في تجمعاتٍ بخلاف تلك الطائفيّة والشلليّة؛ اسخَر من الآيديولوجيات؛ اختَزِل المصطلحات التي تريد البروباغندا كتابتها في جوهر ذواتنا وحَوّلها إلى موضوعاتٍ مجرّدةٍ للتفكير؛ تجاوز أساليب السّيطرة التي تمارسها المنظّمات، وحاول خلق بِنىً تُشبِهُنا.

كُن راديكاليّاً!

ما هو جوهر كفاءة الشخص التافه؟ إنه القدرة على التعرّف على شخصٍ تافهٍ آخر. معاً، يدعم التافهون بعضهم بعضاً، فيرفع كلٌّ منهم الآخر، لتقع السلطة بيد جماعةٍ تكبُر باستمرار، لأن الطيور على أشكالها تقع.